هاجس اللون وأثره ودوافع الإبداع عند شهرزاد الأمريكية السوداء توني موريسون

The obsession with color and its impact and creativity motives for the black American Scheherazade Toni Morrison

د مريم سالمي *

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر

الملخص:

لقد حمل النقد الثقافي على كاهله مهمة الدفاع عن الثقافات المهمشة، من خلال الرد بالكتابة على تلك السرديات التي كتبها الغرب والتي حاولت رسم صورة سلبية - لتلك الثقافات وأصحابها- في إطار الدراسات الكولونيالية وما بعدها، بينما تولى النقد النسوي، مسؤولية الدفاع عن حقوق المرأة وحريتها، ولأن المرأة قد عاشت اضطهاد وقهرا مزودجا، مرة من طرف المستعمر ومرة أخرى من سلطة الرجل وهيمنته وجبروته، أين شكل هذا الاضطهاد خلفية لكتابات المرأة ونقدها، كما شكل اللون والعرق والجنس هاجسا ودافعا لتلك الكتابات. فكيف تجلى آثار اللون في إبداع المرأة ونقدها؟

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الكاتبة الأفروأمريكية توني موريسون والتي سعت من خلال كتاباتها المتعددة إلى تمثيل عالم الزنوج وتجسيد الصراع القائم بين الأنا والآخر، وحاولت إخراج الشخصيات الزنجية من إطار العبودية وتحريرهم من النمطية التي ظلت لصيقة بهم فترة طويلة من الزمن، كما أشارت إلى أن المجتمع الزنجي له تجاربه الخاصة في مختلف المجالات التي تؤهله بأن يتحرر من قيود العبودية، وإعادة بناء هويتهم وتاريخهم ضمن مبدأ الحرية أو ما يعرف بما بعد الكولونيالية.

الكلمات المفتاحية: اللون، العبودية والعنصرية، المجتمع الزنجي، الأسود، المعاناة.

Abstract:

This study seeks to shed light on the African-American writer Toni Morrison, who, through her many writings, sought to represent the world of Negroes and embody the conflict between the ego and the other, and tried to get the Negro personalities out of the framework of slavery and free them from the stereotype that remained closely with them for a long period of time. He pointed out that the Negro society has its own experiences in various fields that qualify it to be liberated from the bondage of slavery, and to rebuild their identity and history within the principle of freedom or what is known as post-colonialism.

Keywords: *color; slavery and racism; negro society; black people; Suffren.*

*** *** ***

* جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي (الجزائر) youcef.bekakria@univ-oeb.dz

تقديم:

مرة أخرى نعود إلى فكرة المعاناة التي تشعل جذوة الإبداع، وكأن المعاناة هي البوتقة التي تصهر المشاعر والظروف والضغوط التي يمر بها المبدع ليخرج إبداعه للقارئ في شكل قصة أو رواية أو شعر أو لوحة فنية، فتصوير الكاتب أو الكاتبة لشخصية بمثل جنسه أو جنسها ممكن أن تكون عملية " تقمص"، وهي عملية يؤدي من خلالها الكاتب لا شعوريا دور البطل، وكأنه هو بكل معنى الكلمة عندما يمر موقف البطل، فالأديب هو ابن بيئته عندما يحترق بذور الكلمة التي تضيء عتمة الظلم والجهل والجوع، ويتحول النص إلى حاضن للمعاناة الإنسانية، ويصبح مرآة للحياة بألوانها القاتمة والزاهية، وكل اختلاجات النفس البشرية، فمن رحم المعاناة تأتي العظمة ولم لا والكتابة إحدى وسائل التعبير عن الحالة النفسية التي يعيشها الإنسان، فالقلب يترجم الأحاسيس والمشاعر ويلعب الخيال دورا مهما في حسن التصوير والإبداع الفكري والأدبي ومنه تخلق أعمال أدبية جميلة.

تصور توني موريسون جانبا من حياة الشقاء والمعاناة التي كبرت فيها فتقول: " إنني من مواليد كليفلاند، جذوري تعود إلى الجنوب، هرب أهلي من الاسترقاق في القرن الماضي. كان الصراع بين التكيف مع الواقع الأبيض والحفاظ على الهوية السوداء هاجسا دائما"[1].

وانعكاسا لهذه المعاناة التي كبرت خلالها الطفلة توني موريسون لتصبح الكاتبة والأديبة والحائزة على نوبل، تظهر أعمال توني موريسون الأدبية الظروف الصعبة البائسة التي يعيشها السود في أمريكا البيضاء أن مسألتي الجنس والعرق تساهمان بشكل كبير في إظهار حجم الاضطهاد والمعاناة ضد الأفارقة الأمريكيين، فمنذ بداية العبودية وحتى وقتنا يعتبر اللون والجنس من أهم مسائل التمييز العنصري، فقد تم عزل وتهميش ومعاملة العرق المختلف عن العرق العام بطريقة سيئة إلى درجة حرمانهم من حقوقهم في أمريكا.

بل إن توني موريسون نجحت في تجسيد المعاناة المزدوجة الذي تحت طائلته المرأة السوداء من حيث تمييزها في المجتمع الأبيض وكذلك معاناتها تحت سيطرة الرجل الأسود أيضا. كل ذلك تجلى بأسلوب روائي امتزج به السرد الشعبي والشعر والأسطورة الخرافة لتخلق منه الكاتبة إبداعا أدبيا مميزا في سائر أعمالها.

1. توني موريسون ميلادها وحياتها:

في 18 فبراير عام 1931 ولدت توني موريسون في لورين بولاية أوهايو بجنوب الولايات المتحدة الأمريكية من أب يعمل بسيطا، وأم تغني في الجوقة الكنسية لكسب بضعا من الدولارات، وكانت مليئة بالنشاط وقوة الشخصية إلى حد كبير، حتى أنها كانت تحتج ضد " روزفلت" لمجرد بعض الدود في الدقيق الذي تستخدمه. وكانت أسرتها تعتمد على المعونات الغذائية للبقاء على قيد الحياة، لكن مع ذلك فإن هذه السوداء نجحت في أن تستكمل دراستها، وأن تحول المعاناة التي مرت بها ومر بها ملايين السود من حولها إلى أدب رفيع.

وفي مثل هذه الظروف الاجتماعية والسياسية الصعبة عاشت موريسون حياة مضطربة وقاسية في مجتمع يضع الزنوج دائما في آخر السلم، لكنها حين اكتشفت موهبتها حولت عالمها الضيق إلى كون شاسع، كرست جل كتاباتها لمناهضة العنصرية، دخلت العالم الجواني للرجال والنساء على السواء، وكشفت عقدة العبودية التي يعاني منها الزنوج.

الاسم الأصلي لتوني موريسون هو كلويه أنطوني، وتعود أصولها لأسرة هربت من الاسترقاق

من مناطق الجنوب الأمريكي، تلك النشأة هيأتها لتكون من أكثر الأصوات الأدبية في الولايات المتحدة التي كان في وسعها التعبير عن الظلم والقهر الذي تعرض له الملايين الذين تم جلبهم من أفريقيا ليسترقهم الرجل الأبيض وينعتهم بصفة جديدة عليهم، لكنها تظل لهم طوال قرون فهؤلاء أصبحوا من الآن وصاعدا " الزنوج".

في كل أعمال موريسون تتجسد الشخصيات السوداء، نساء كانوا أو رجالا، لتتحدى خوف المجتمع الأفرو- أمريكي من نفسه، وهو يسترجع ذاكرة 60 مليون إنسانا لا ذنب لهم إلا أنهم ولدوا سود البشرة، وهؤلاء بهذا الذنب قضوا تحت الرصاص ولسعات السياط.

هذه الروائية الأيقونة قدمت نفسها ك (نصف غريبة، نيويوركية، نيوجرسية، أمريكية، أفرو- أمريكية، وإمراة) وهي تتسلم جائزة نوبل سنة 1993، لم تكن توني موريسون مجرد كاتبة روائية أمريكية فازت بجائزة نوبل، بل تعد واحدة من الأصوات البارزة التي حاربت وفضحت العنصرية ضد الأمريكيين الزنوج، فقد نجحت في أن يستلهم إبداعها الروائي طفولتها المبكرة والقص الشعبي والأساطير حول التفرقة العنصرية وبقايا ممارسات العبودية في المجتمع الأمريكي، بل إن موريسون تحولت إلى رمز الأمل في المساواة لكثير من زنوج أمريكا.[2]

2. أعمالها:

يتسع عالم موريسون إلى أكثر من جيل، فهي ما تزال تغوص في الجذور الأولى لبني جنسها، وتذهب بعيدا حين تجلس وراء طاولة الكتابة ثم تعود بنا إلى الأجيال اللاحقة، المتمردة والرافضة لكل أشكال العنف في المجتمع الأمريكي، مستحضرة طقوس ومعتقدات السحر والشعوذة وتحضير الأرواح، تلك المعتقدات التي تشبه إلى حد كبير معتقدات العالم الثالث.

واتسمت كتاباتها بالعمق والفخامة، لكنها في نفس الوقت عبرت من خلال سرد روائي مليء بالشجن عن هموم ومشاعر النساء الزنجيات اللاتي خضعن للرق والعبودية وتعرضن للقهر والاستغلال والاغتصاب والضرب بالسياط، حيث كان الزنوج يستخدمون في السخرة، لا يملكون سوى ما يوفره لهم أسيادهم من خبز، وصورت في أعمالها شخصيات لنساء زنجيات وباحثات عن العشق، لكنهن يعانين من افتقاد الأمان في مجتمع يرسم لهن خطوطا حمراء بسوط السيد الأبيض لا يمكن تجاوزها.

وعلى الرغم من أن موريسون نجحت في تصوير حياة النساء الزنجيات، إلا أنها لم تهمل الرجل الزنجي الذي عانى من نفس الظروف فجاءت أعمال توني موريسون كأنها ذاكرة لما مر به الزنوج السود في أمريكا من قهر واستلاب تحت نير العبودية، وحتى عندما انتهت حقبة العبودية في أمريكا لم يستطع الأمريكيون الزنوج نسيان ما جرى لهم تحت سوط السيد الأبيض. يظهر ذلك من خلال رواية (أغنية سليمان) التي تتناول قصة رجل زنجي يحاول الهرب من ذكريات العبودية، إلا أنه يعود دائما إلى عذابات أجداده الزنوج.[3]

وبصفة عامة، يمكن القول إن موريسون أصبحت من المؤسسين لهذا الفرع الأصيل من الأدب الأمريكي الذي شغل بال النقاد بدراسات مختلفة ضمن إطار مناهج الأدب الأمريكي حول العالم. حيث تصف توني موريسون في كل ما صدر لها من روايات التفاوت في الفروق بين البشرة السوداء والقيم الثقافية البيضاء، وهذا يظهر تناقض الموضوع السلبي المتمثل في إغواء وخيانة المجتمع الأسود من قبل ثقافة البيض، وأما الموضوع

الإيجابي فيتمثل في البحث عن الهوية الثقافية للسود من أجل استمرارية الحياة بالنسبة إليهم في أمريكا.

كما قامت موريسون بإحياء الجزء الخفي من الذاكرة الأمريكية في بعض الكتب التي فقامت بتأليفها وهي روايتها الست المشهورة بين عامي 1970-1995 وهي على التوالي: العيون الأشد زرقة عام 1970، صولا عام 1974، وأغنية سليمان عام 1977، وطفل من فصيلة بنات القرنية عام 1981، ثم محبوبة التي حصلت على جائزة بوليتزر عام 1988، وجاز في عام 1992، وفي عام 2012 أصدرت رواية الوطن التي ترجمت إلى العربية الديار ونالت عنها جائزة بولتيزر أيضا، وصدر لها في عام 2015 رواية ليكن الله في عون الابنة[4].

في كل هذه الروايات نحن دائما أما نفس المرأة الزنجية من خلال ثلاثة أجيال من النساء، الجيل الأول عاش سنوات العبودية أو قارب ذلك، أما بنات الجيل الثاني فيحاولن نسيان هذا الزمن، ويصنعن عالما خاصا يحاولن من خلاله صناعة هوية ثقافية واجتماعية خاصة مثل موسيقى الجاز، أما بنات الجيل الثالث فهن أكثر تحررا وسعادة، لكنهن تبعا للعصر أكثر معاناة، لذا فرغم أن الماضي بالغ القسوة إلا أنه أكثر رحمة من الواقع الراهن، وعليه فإن روايات الكاتبة مليئة بالحنين إلى سنوات العشرينيات.

3. رواية صولا:

في رواية صولا والتي تعد من أهم أعمالها، تتبع سيرة امرأه تسللت نفسها الخطيئة وعاشت حياة مضطربة بدت في الكثير من الأحيان غريبة الأطوار.

تمثل صولا في الرواية الجيل الثالث من الزنوج خلال الفترة التي اختارتها الكاتبة، وهي فترة العشرينات حتى عام 1941، عندما ماتت صولا لتستمر أحداث الرواية إلى عام 1965، حيث شهدت حياة الزنوج بعض التحسن نشأت صولا فتاة متمردة ورافضة، ولذلك يبدأ العنف بالتسلل إلى روحها منذ الطفولة، ثم يزداد خلال مراهقتها، ويصل بها الأمر إلى أن تأتي برجلين يحملان الجدة إيفا عنوة المصحة لتصبح هي الوصية.

تتخذ الكاتبة من مدينة ميداليون مسرحا لأحداث روايتها، وتحديدا أحياء الزنوج، ذلك المكان المرتفع على التلال المشرفة على وادي البلدة، وهو الحي المسمى بال(القاع) ويمكننا من التسمية أنه قاع المدينة، أي الجزء المسحوق منها حيث يعيش السود، إنه يقع فوق التلال، فيما البيض يسكنون في الجزء الأسفل من تلك التلال، وهذا ما يعزيهم أنهم الأقرب إلى السماء وأنهم من يراقبون البيض، لكن الحقيقة أن أرض البيض هي الخصبة، في حين أن الزراعة في القاع مرهقة والتربة تنزلق حاملة معها البذور، والرياح تعصف طوال الشتاء، والحي بأكمله فقير جدا، إذ يعم الجوع والمرض والجهل، على الرغم من أنه ينبض بالحياة، إذ يمكن في بعض الأحيان أن نسمع الغناء وعزف البانجو ورؤية امرأة تقدم عروض الرقص الزنجي[5].

الحياة في هذا الحي الفقير تسير بهدوء ظاهريا، أما في العمق فالإنسان الأسود لا قيمة له بنظر الرجل الأبيض، لا في حياته ولا عند موته. للسود طرق خاصة وعربات في آخر القطار ومقابر بعيدة عن مقابر البيض، وإذا أخطأ أحدهم كما حدث لهيلين – إحدى شخصيات الرواية- فإنه يمكن أن يحدث له ما يهين كرامته أما الجميع.[6]

صولا لا تدخل الرواية في صفحتها الأولى، وإنما تضعها الكاتبة أمام شخصية "شادراك"، وهو شاب وسيم بلا ماض، بلا لغة، بلا قبيلة، بلا أشياء خاصة به، لأنه عائد من الحرب بروح مخربة وذاكرة مشوشة، كل ما يتذكره، نافذة ونهر وأصوات

هامسة خلف الباب، لكنه لا يعرف أين تقع النافذة؟ وأين اتجاه النهر؟ وما هي الأصوات الهامسة التي تتسلل إلى أذنه من خلف الباب؟

وتلقي بنا موريسون في دائرة البحث عن أصل حكاية هذا الشاب الذي سيلتقي صولا بعد عدة سنوات، حين تكون سمعتها قد ساءت إلى الحد الذي أصبحت فيه منبوذة من قبل مجتمع القاع... ولم يزدها ذلك إلا رفضا لهذه الحياة المهينة للملونين، مع أن جدتها كانت تقول لها إن كل هذه الحياة رفاهية بالنسبة لما كان يحدث في عام 1895، كل الأشياء رديئة في تلك الفترة، كان الزنوج يموتون كما الذباب، أنت الآن في أعلى السلم.

لكن صولا لا تعترف بهذا السلم، إنها تريد القفز إلى الأعلى فهي نفس جامحة، وصار صعود السلم برغباتها هو الهدف الذي تسعى إليه، غير عابئة بما يراه الآخرون حتى تحولت إلى منبوذة، ثم وحيدة ومريضة، لكنها مع الحال الذي وصلت إليه ظلت محتفظة بذلك الغرور الذي ورثته عن جدتها، إلى الحد الذي قالت لصديقتها ' نيل' وهي مشرفة على الموت " إن النساء الأخريات يمتن كخرقة، أما أنا فأنغرز في الأرض كشجرة جبارة، لقد عشت حياتي"[7].

وبموتها يتنفس أهالي القاع الصعداء، معتبرين أن موتها خبر سمعوه وانتهى توترهم وسوء طالعهم. وكان آخر من أقامت معه علاقة هو المخبول شادراك الذي بدأت به توني مويسون الرواية، لقد عجز شادراك عن البحث للوصول إلى جذوره، ووجد صعوبة في استحضار أرواح الضباط والجنود والأعداء حينما كان جنديا يشارك في حرب مأساوية طويلة قضت على حياة الآخرين وجرفت معها ذاكرته مما جعله يركن لحياة صنعتها له صولا.

بموت صولا قفزت الكاتبة إلى عام 1965، حيث تغيرت أمور كثيرة، وصار باستطاعة الملونين أن يذهبوا إلى أي مكان في المدينة ويعملوا في محلات رخيصة خلف الطاولات، أو يلجوا عالم التدريس في الثانويات، أما القاع فقد انهار، حيث انتقل كل من صنع ثروة صغيرة أثناء الحرب إلى أبعد ما يمكنه من ذلك الوادي الفسيح... لم يعد ثمة ملونون يعيشون على التلال، انتقلوا إلى الأسفل، حيث كان يعيش البيض الذين صاروا يبنون بيوتهم فوق التلال.. أتراهم قلبوا المعادلة وراحوا يراقبون الزنوج من فوق؟[8]

ويعد النقاد " صولا" عملا مهما، فيه الكثير من المتعة، خصوصا ما يتعلق بطقوس الزنوج وعاداتهم. كما نلمس بتركيز محسوس معاناة الأنسان الأسود وكفاحه طيلة عقود من الزمن، من أجل حياة أفضل لبني جنسه، وهذا ما تميزت به الروائية الأمريكية توني موريسون في معظم أعمالها.

4. رواية رحمة - الرق وحق المرأة الزنجية-:

أظهرت موريسون إخلاصا غير محدود للقضية التي تكتب عنها باستفاضة ومشاعر صادقة كأنها تكتب عن نفسها أو عن أقرب المحيطين بها، فبعد ما يقرب من 15 عاما على فوزها بنوبل، لم تنشغل عن إلقاء الندوات والسفر حول العالم لتلبية الدعوات الموجهة لها من كل أنحاء العالم، بل استمرت في الكتابة عن تاريخ طويل من القهر والظلم والاغتصاب لحق بالمرأة الزنجية في أمريكا خلال حقبة العبودية، ففي عام 2008 أصدرت روايتها " رحمة" واعتبرها النقاد واحدة من أفضل عشر روايات صدرت في عام 2008، وطبعت في كل من نيويورك وتورنتو. وفي هذا العمل القصير نسبيا تعود الكاتبة إلى موضوعها الأثير، إلى الحفر في بئر العبودية المظلم ونبش العذابات من جذورها، انطلاقا من نقطة بدايات التاريخ الحديث الأمريكي، الرحلة ما بين أفريقيا والشمال الأمريكي، تنقب صفحات تاريخ بدايات ما يسمى

اليوم بأمريكا، مازجه الخيال بالاحتمالات الممكنة لفهم آلية تكون هذا المجتمع الذي صار القوة الأولى في العالم اليوم.

وفي هذه الرواية ظهر بقوة توجه موريسون وتأكيدها على أنها أمريكية أفريقية، قومية، وجاءت رواية رحمة عنيفة وقاسية ومتشعبة. متعددة الطبقات والأصوات، تأخذ القارئ إلى حيرة وخاصة في صفحاتها الأولى، ثم تبدأ تدريجيا في الكشف عن أعماق الشخصيات والأحداث في حياة كل فرد، بالعودة إلى بدايات القرن السابع عشر، بداية الهجرة من كل صوب وتشكيل هذه الرقعة التي كانت مشاعا كأنها " لم تطأها قدم نوح"[9]، فكانت البدايات مع استقدام العبيد للعمل كأرقاء بالسخرة وبلا أجرة ما يبقيهم فقط على قيد الحياة في هذه الأرض.

ومن خلال هذه الرواية عبرت الكاتبة عن رؤيتها لقضية الرق في أمريكا وارتباط استعباد البشر بالعنصرية البغيضة في الأرض الجديدة، حيث تعترف بأن جميع الحضارات عبر التاريخ، اليونانية، الرومانية، الفرعونية وغيرها قامت على استغلال الطاقة العاملة واستعباد العمال، ولكن الشيء اللامعقول الذي حصل في أمريكا هو هذا الربط الجائر ما بين العرق والعبودية. وهنا تقصد العرق الأسود، وهذا ما حاولت أن تضع يدها عليه في الرواية، حيث لا يمكن تحديد تاريخ بعينه يمكن القول عنده بأن الإنسان قد بدأ فيه، استرقاق إنسان آخر، ولكن الرق بصفة عامة عرفته كل الحضارات والثقافات والديانات الوضعية والسماوية أيضا طوال التاريخ وحتى فترة قليلة قريبة مضت، لكن بالنسبة لما حدث في الأرض الجديدة على يد السيد الأبيض، فقد ارتبط الرق بالحاجز اللوني بين (الأوروبي- الأبيض) و(الزنجي- الأسود).

وعكست أفكار الكاتبة في هذا السياق الطبيعة العنصرية الخالصة لمؤسسة الرق في أمريكا وهي المؤسسة التي انعكست صورتها في أدبها ما كان متوقعا أن ينتج عن طبيعة الدلالات السلبية للون الأسود في الثقافة والضمير الأوروبي أن تظهر مبررات واقعية للطابع الوحشي وغير الإنساني الذي اتسمت به علاقات الاسترقاق داخل مؤسسة الرق في الولايات المتحدة، وهي الوحشية التي دفع ثمنها زنوج أمريكا، وصورت توني موريسون ملامحها بكل وضوخ.

فالرق في الأرض الجديدة التي عرفت فيما بعد باسم الولايات المتحدة الأمريكية كان علاقة قانونية فرضها السيد (الأوروبي- الأبيض) ويكون فيها شخص ما (الزنجي-الأسود) مملوكا بقوة القانون لشخص آخر، وكان يتم تدعيم سلطة السيد المالك على رقيقة باستمرار ليس فقط بقهرهم جسديا وتوقيع عقوبات بدنية عليهم تشمل حتى حق السيد في إعدام رقيقه[10].

بل كانت توجد أيضا وسائل رمزية أخرى لتكديس خضوع هؤلاء لأسيادهم والحفاظ باستمرار على شعور الأرقاء عند انتقالهم من حوزة سيد لآخر، وأحيانا من فترة لأخرى لدى نفس السيد لإذلالهم وحرمانهم من شخصيتهم بل سحقها، بالإضافة إلى الممارسة الأخرى الشائعة بإطلاق اسم ' ولد' على كل العبيد الزنوج الذكور بغض النظر عن أعمارهم. ولم يكن الضرب بالسياط على سبيل المثال مجرد وسيلة لعقاب الرقيق الزنجي الأسود على أخطاء ارتكبها أو تقصيره في خدمة مالكيه بقدر ما كان أداة للسيطرة عليهم والتأثير في نفوسهم وتذكيرهم دائما بوضعهم الاجتماعي بوصفهم أناسا لا كرامة لهم، بالإضافة إلى أن الضرب بالسياط كان يتم استخدامه في الغالب على اعتبار أنه الحافز الوحيد المناسب للحصول من الأرقاء على المزيد من الجهد سواء من

رقيق الخدمات المنزلية، أو من الرقيق القائم بأعمال أخرى.[11]

عن هذه الأجواء والظروف المحيطة بالأرقاء الزنوج في أمريكا كتبت موريسون روايتها " رحمة"، فالشخصيات متعددة الأصول والأعراق تجد نفسها مجبرة على العيش في بيت واحد في مزرعة جاكوب فاراك، وتجد نفسها مجبرة على التصرف كعائلة، رغم كل الاختلافات بين هذه المجموعة من البشر الذين وجدوا أنفسهم ضحية صفقات لا علاقة لهم بها، وأنهم مجرد سلع متبادلة من أجل إيفاء ديون مترتبة على المالك الأول، أو على أفراد الأسرة.. هنا الأم البرتغالية الملونة تقايض ابنتها إيفاء للدين، والأم نفسها مقايضتها في البداية من قبل سيدها في أفريقيا، وينسحب ذلك على زوجة مالك المزرعة " ريبيكا" القادمة من إنكلترا، مثخنة بذاكرة سوداء شاهدت مراحل العنف والقتل في تلك الحقبة، تجد نفسها بلا خيار لتصبح زوجة صاحب المزرعة.

الرق يسود على الجميع، بمن فيهم " لينا" الهندية التي شهدت دمار قريتها وأبناء عرقها، و" سورو" المختلة عقليا. هنا يتعادل موقف المالك الذي يتصرف بحياة العبيد الذين في خدمته، مع موقف الأم والأب الذي يتخطى عن فلذة كبده، ولكل مبرراته. الأم التي نعرف عنها بأنها كالقطة تدافع عن أبنائها، ترجوهم أن يأخذوا الابنة حين يأتي صاحب المزرعة للمطالبة بديونه، وحين وافق الرجل على تضرعاتها " المرأة التي رائحتها ثوم انحنت على الأرض وأغمضت عينيها"[12] تشكر ربها. ثم كتبوا ورقة وافقوا فيها على أن ثمن الفتاة " فلورنس" 15 باوندا إنجليزيا، أو ما يعادله من التبغ، وكانت حينذاك دون العاشرة من العمر[13].

وتكتشف فلورنس أهمية الحروف والكلمات والكتابة... في بداية تقول: " لا تجزعي. لن يؤذيك ما أقوله.. على الرغم مما مررت به.. ما أخبرك به، يمكن اعتباره اعترافا إذا شئت.."[14] ولكن الأشياء تبدو مختلطة لأن الذاكرة ليست مخلصة، والمخيلة تلعب دورها. البنت تتذكر، تتراءى لها صورة أم تحمل ابنها الصغير وتقف أمام الباب وفي جيب مريلتها حذاء الطفلة؛ الطفلة فلورنس التي كانت من صغرها مولعة بالأحذية والكعب العالي لم تكن قدمها الصغيرة تطيق عراء الأرض، حتى وإن كان الطقس حارا، هذا ما جعل الأم قلقة من رغبات ابنتها الطموحة، والتي ستكبر ولن تجد أمها قادرة على تحقيق حلمها، بل ستكبر ولن يرحمها الآخرون، وهم يعاينون أنوثتها تنضج سريعا.

وقد استوحت الكاتبة عنوان الرواية من موقف هذه الأم التي وجدت خلاصا بمجرد قبول صاحب المزرعة أن يأخذ الابنة، رحمة بالطفلة والعائلة. الأم اعتقدت أن هذا هو السبيل الوحيد الذي قد يمنحها حياة أفضل مما لو بقيت في جوار أمها الفقيرة، العبدة التي تعرضت للاغتصاب وللبيع وأنجبت ولدين لا تعرف أباهما.

إنها أميركا، وإن قلنا إن تاريخها " أسود" فسنجد أن مفردات اللغة تمارس تمييزا عنصريا لونيا، فلنتوقف على وجه الخصوص عند قراءة حال الأم والابنة في هذا القص الصادم والمركب المتقطع، المحمول على وهج لغة شعرية وتعرف إلى أين تذهب.

تنقشع المواقف في ختام الرواية القصيرة نسبيا، يحضر بوح الأم وهي تشرح موقفها في رسالة مؤثرة إلى ابنتها، ولكن الرسالة لن تصل. كما أن صوت الفتاة لن يصل الأم من خلال سرد يكشف انفعالات الروح ومواجعها.

تقول الأم في نهايات الرواية لابنتها، بأنها تعرف ما ينتظرها وتعرف مزاج الرجال، تعرف أنها لا تستطيع أن تأتمن عليها لحظة بعد أن بدأ ثدياها

بالظهور باكرا وسريعا، حتى الأولاد السود الذين يعملون في نفس الرقعة لا يمكنها أن تأمن شرهم ورغبتهم فيها، وتقول " حقيقة لا أعرف من والدك. كانت عتمة الليل، أتوا وأخذوا ثلاث نساء منا... لم يكن هناك وقاية... أن تكوني امرأة في هذا المكان يعني أن تكوني جرحا مفتوحا لا يندمل. حتى لو لم يكن هناك ندب، فالوجع يمتد إلى الأعمق"[15].

كما تصف الأم ما حصل في الخطوة الأولى في درب العبودية فتقول: " قدموا واشتبكوا مع رجالنا، أحرقوا البيوت، أخذوا الذين لم يتمكنوا من قتلهم، عدة مرات تم الإتجار بنا، نقلنا من مكان إلى آخر. كانت أعدادنا تتزايد، هناك التقينا برجال اعتقدنا أنهم مرضى أو موتى. ولكن يبدو أن هذا لون جلدهم الذي أصبح أبيض التبس علينا، الرجال الذي كانوا يقودوننا ويتاجرون بنا، كانوا سودا وأكدوا لنا أن الرجال البيض لن يأكلونا"[16] فصلوا بيننا وأخذونا كل إلى جهة، إلى بيت يسير فوق الماء. كانت الحيتان حول القارب تنتظر وجبة. " أنا رحبت بالحيتان التي تدور، ولكنها تجنبتني، كأن الحيتان كانت تعرف أنني أفضل أن يقرضوا بأنيابهم السلسلة التي في عنقي، في رسغي وفي كاحلي"[17]. حين انطلق القارب، بعضنا قفز إلى الماء.. هنا لا سبب ولا قانون لحدوث أي شيء، من يعيش، من يموت؟ إنها مسألة واحدة، أن تعيس على أوساخك، أن تعيش على وسخ الآخرين. وصلنا إلى باربادوس. هناك وجدت أن رقصي، ثوبي، لغتي، عاداتي... كل شيء كان مخلوطا بلون جلدي. لقد أخذوني من حقول قصب السكر في قارب إلى الشمال كي أعمل في حقول التبغ، وقبل العمل كان يجب أن يعاشروني جنسيا، أخذنا رجال في الغتمة، وبعد ذلك أعطونا برتقالة، وفي كلتا الحالتين، لابأس كانت النتيجة أنت وأخاك.[18]

وتضيف " أردت أن يأخذك الرجل الطويل، فقد ينظر إليك كطفل إنسان كنت أبتغي حصول المعجزة. ثم قال نعم، وكانت المعجزة. رحمة قدمت من قبل إنسان. جلست على ركبتي، طويلا في الغبار، وحيث سيبقى قلبي هناك كل ليلة وكل يوم، حتى تفهمي ما مررت به وما أردت إخبارك به. آه، يا فلورنس، يا حبي... واسمعي..."[19]

لكن فلورنس التي عشقت الحرف تعيش حزنها أيضا، وتقول: " شيء واحد حزين يبقى. كل هذا الوقت لم أستطع أن أعرف ماذا كانت تقول أمي، وهي أيضا لم تكن لتعرف ماذا أردت أن أخبرها"[20]..

ليست هذه أول رواية تكتبها موريسون عن الأم التي تقتل أو تبيع أولادها لتجنبهم شر العبودية، لكنها في سردها دائما لا تتوقف عند مصائر النساء فقط، بل تنخرط في تعرية المجتمع بكل طبقاته، رجاله ونسائه، أفراده السود والبيض، والملونين. يختلط بين سطورها العنف بالكره بالحب وبالأمل.

نجحت موريسون من خلال رواية " رحمة" في التوثيق لمرحلة تاريخية مهمة في العالم الجديد (أمريكا)، تاريخ العبودية والحرية، تاريخ اللون وتاريخ السيطرة... سيطرة إنسان على إنسان والتحكم به كأي شيء... حذاء، كأس، آلة، غير محدد الهوية، توني موريسون أجادت وصف هذه المرحلة من خلال ثلاث نساء هن البطلات في رأيي؛ لأن المرأة هي المجتمع هي الحياة، وأن تجعل منها رواية لتاريخ معجون بالقضايا الإنسانية فذلك تفوق يحسب للكاتبة، مع بيان وضعية المرأة الحرة (السيدة) زوجة السيد اللذان يملكان النساء الثلاث (العبيد).

وتصنف أحداث في الرواية تحت عدة مصطلحات: الدين، اللون، الحب، الحرية؛ الدين

حيث الإيمان به أو اللا إيمان واستغلاله من قبل رجال الدين بأبشع الصور، اللون الذي يكون تهمة، الحب بين العبد والحر، الحرية التي ينشدها السود.

وفي الأخير يشير اختيار الكاتبة إلى وجود امرأة لتكون مركز ونجم روايتها لمدى اهتمامها العميق لإعادة بناء الثقافة الأفريقية- الأمريكية وتاريخ العبودية، فإن معاناة المرأة الأفريقية- الأمريكية على يد كل من الرجال السود والبيض معا جعلتها تقاتل وتكافح من أجل البقاء سواء داخل أو خارج المنزل، لذلك فإن قصص وحكايات هؤلاء النسوة، حتى في المجتمع الأمريكي المعاصر محفوفة بالمعوقات والمخاطر المزدوجة المتمثلة بالجنس والعرق. ورغم التحرر والتعليم والتقدم التدريجي في مجال العمل فإنهن ما زلن يتخلفن كثيرا عن النساء البيض والرجال السود.

تظهر أعمال توني موريسون الأدبية الظروف الصعبة البائسة التي تعيشها السود في أمريكا البيضاء... أن مسألتي الجنس والعرق تساهمان بشكل كبير في إظهار حجم الاضطهاد والمعاناة ضد الأفارقة الأمريكيين، فمنذ بداية العبودية وحتى وقتنا الحاضر يعتبر اللون والجنس من أهم مسائل التمييز العنصري، فقد تم عزل وتهميش ومعاملة العرق المختلف عن العرق العام بطريقة سيئة إلى درجة حرمانهم من حقوقهم في أمريكا.

وقد ارتبطت كتابات موريسون ارتباطا وثيقا بتاريخ أبناء جنسها ومعاناتهم وعذاباتهم، وسعت لإحياء الجوانب الخفية من الذاكرة الجماعية على مدى عقود تلك الذاكرة، ثم محاولة بناء حياة جديدة تسودها الحرية وتعمها المساواة بعيدا عن تلك الذكريات المؤلمة حياة.

المعاناة وقسوة الحياة والتفرقة العنصرية الصعبة قواسم مشتركة جمعت شخصيات موريسون في جميع أعمالها، ففي عالمها الأدبي سنجد هؤلاء النسوة اللاتي يتسمن بجمال وحسية وعزيزة متقدة، ومع ذلك فإنهن يعانين من افتقاد ملحوظ لعلاقة كاملة مع طرف آخر... فعالم موريسون مليء بالسخريات المأساوية، وأن النساء يعشن في قسوة وعنف وسخرية قاسية، ورغم ذلك فهو بالغ الاتساع والغنى والخصوصية والاهتمام بالتقنيات الجمالية ركيزة أساسية لكل عمل فني جديد، ولا يتعلق الأمر بالواقعية الخيالية لعمل يقوم على بناء وهدم الأسطورة الإنسانية بدءا من الفلكور والاعتقادات، وأساليب الحياة في التجمعات السوداء، وماضي أفريقيا فقط، بل إن الخيال عند الكاتبة هو دافع ثقافي وبذور لاتنمو إلا بعد أن تتشكل الخيالات.

الخاتمة:

حفلت روايات توني موريسون بالعديد من الأنساق الثّقافية، ولعلّ أهم نسق هيمن على متن هذه الرواية هو نسق العبودية، حيث استعادت" طوني موريسون "من خلال هذه الرّوايات حياة العبودية والتّملك الّتي كانت سائدة في الماضي، وفي هذه الروايات تحرّرت المرأة من حياة العبودية، وكسرت كل القيود الّتي كان لزاما عليها أن تسير وفقها، كما جسّدت هذه الرواية العلاقة بين السّيد والعبد، والغني والفقير، ومن أهم مظاهر العبودية نجد العنصرية، وقد تمّ تصوير الأحداث بطريقة جمالية تمزج بين الواقعي والعجائبي، كما وجدت" طوني موريسون " في الكتابة أفضل وسيلة للتّعبير عن الزنوج، ورصد واقعهم المعيش، فمثلما للبيض أدبهم الخاص بيهم الأمر نفسه ينطبق على السّود، فمن حقهم أن يكون لهم أدبهم الخاص بهم، والّذي يعبرون به عن واقعهم ويردون به على الآخر الّذي جعلهم يخضعون لهيمنتهم ويسيرون وفق تلك الأنماط

الجاهزة الّتي رُسمت حولهم، وبالتالي تمكنوا من جعل صوتهم مسموعا في المجتمع الأمريكي، وبهذا تمكّنت" طوني موريسون "من كتابة اسمها بأحرف من ذهب في سجل التّاريخ الأدبي، فهي أول روائية زنجية تنال جائزة نوبل للآداب. ومن أبرز النتائج المتوصل إليها الآتي:

- كرست موريسون في أعمالها الإبداعية مهاجمة التمييز العنصري بين لبيض والسود، وكذلك تحرير مواطنيها من عبودية العرق الأسود.. لذا سيطر على عالمها الإبداعي فكرة مقاومة القهر في ثلاثيته التقليدي (القهر العرقي، القهر الجنسي، القهر اللغوي).
- كانت في حياة موريسون إشكاليتان تؤرقاها دائما مشكلتها الخاصة في فشل زواجها، ومشكلة عامة هي مشكلة جنسها الأسود في المجتمع الأمريكي والصراع بين السود والبيض.
- كان ضمن الغايات التي من أجلها كتبت توني هو إظهار أوجه التشابه بين الاستعباد الأمريكي للزنوج، والاضطهاد النازي لليهود (على حد زعمها)، ظهر ذلك جليا في روايتها الخامسة محبوبة.
- لقد نجحت" طوني موريسون "في تصوير حياة الرّق والعبودية، حيث نجد شخصيات روايتها مليئة بالصراعات خاصة إذا عدنا إلى ماضيها، كما جسّدت الصراع القائم بين البيض والسود، حيث كان السّود بمثابة العبيد وهذا ما تجسّد في العديد من مقاطع الرّواية.

الهوامش والإحالات:

[1] - عبد الله زكريا الأنصاري، أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004، ص 53.

[2] - محمود قاسم، موسوعة جائزة نوبل 1901-1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995، ص165.

[3] - توني موريسون، أغنية سليمان، دار العودة، بيروت، دط، 1994، ص67.

[4] - ميشيل خوري، جوائز نوبل 1901-1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، 1990، ص85.

[5] - خالد محمد غازي، التفاحة الذهبية نساء نوبل.. الفائزات في الآداب، ص85.

[6] - المرجع نفسه، ص87.

[7] - توني موريسون، صولا، ص64.

[8] - المرجع السابق، ص89.

[9] - توني موريسون، رحمة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2012، ص22.

[10] - خالد محمد غازي، التفاحة الذهبية نساء نوبل.. الفائزات في الآداب، ص95.

[11] - ميشيل خوري، جوائز نوبل 1901-1989، ص67.

[12] - توني موريسون، رحمة، ص34

[13] - المرجع نفسه، 36.

[14] - المرجع نفسه، ن ص.

[15] - المرجع السابق، ص131.

[16] - المرجع نفسه، ص134

[17] - المرجع نفسه، ص134-135.

[18] - المرجع نفسه، ص 139.

[19] - المرجع السابق، ص149.

[20] - المرجع نفسه، ص152.

قائمة المصادر والمراجع:

1. توني موريسون، أغنية سليمان، دار العودة، بيروت، دط، 1994.
2. خالد محمد غازي، التفاحة الذهبية نساء نوبل.. الفائزات في الآداب.
3. عبد الله زكريا الأنصاري، أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004.
4. محمود قاسم، موسوعة جائزة نوبل 1901-1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
5. ميشيل خوري، جوائز نوبل 1901-1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، 1990.